منبر القاهرة

الخطاب الذي ألقاه الدكتور إبراهيم الجعفري في مقر الجامعة العربية في القاهرة خلال انعقاد مؤتمر الوفاق الوطني الذي استضافته الجامعة

2005/11/19

السلام عليكم جميعـــاً ورحمــة الله و بركاته...
قال الله (تبارك وتعالى) في محكم كتابه العزيز:
بسم الله الرحمن الرحيم
((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم)).
ثلاث أزمات عادة ما تواجه أمم العالم وشعوبه، عندما تصر تلك الأمة أو ذلك الشعب على تحقيق وحدته:
أزمة في الفكر، وأزمة في الخطاب، وأزمة في التطبيق والأخلاق.
من أين ينطلق المفكر الإنساني في تحديد مفهوم الوحدة؟ هل الوحدة وحدة عقل وفكر؟ أم هي وحدة قلب؟
يفتح علينا القرآن الكريم بثقافة التعدد على مستوى التفكير، وعلى مستوى عطاء العقل فضاء متسعاً يحترم الآخر, لذلك أقرّ القرآن التعدد في الحوار، والتعدد في التفكير، والتنوع الفكري الذي احتضنه ورعاه, ولذلك نشأ أصحاب الفكر، وترعرع فكرهم في آفاق الدين الإسلامي.
أنما بدأتُ بهذه الفقرة، فقرة تأصيل وتقعيد مفهوم الوحدة؛ لأني أشعر أنها الآن تدور في بعض أروقة المتدينين، وبعضهم من يؤكد على أنهم يحرصون على الوحدة، وينطلقون بطريقة - في تقديري - تفتقر إلى مرتكز فكري.
الوحدة في القرآن ليست وحدة عقل, الإسلام لم يُلغِ الآخر, الآخر العائلي، والآخر القبلي، المدني، المناطقي، والآخر الديني كذلك؛ لأن الوحدة لا تعني أن تلغي الآخر، الوحدة تنطلق من القلب، ويؤكد ذلك القرآن:
((وأمرهم شورى بينهم)).
((وشاورهم بالأمر)).
((فإذا عزمت فتوكل على الله)).
أي احترم الآخر وارعَ الآخر، لذلك نجد أن القرآن جعل في آيات قرآنية كثيرة منه، الآخر جزءاً من الحياة المتمدنة والمتحضرة، التي تتعامل فيها مع الآخر:
((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)).
الآخر محترم، والذي يحمل فكراً إسلامياً ينبغي أن يضع في حسابه أنه لأجل أن يكون فكره فكراً إسلامياً يجب أن يعترف بالآخر مهما كان الآخر بعيداً عنه.
ليس من أدبيات الوحدة أن تقمع الآخر إنما الوحدة تنطلق من القلب:
((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم)).

ولم يقتل بين عقولكم وآرائكم، فمن القلب تبدأ الوحدة، ومن القلب تبدأ الفرقة، ومن حيث بدأت الفرقة لابد من أن نعوّض هذه الفرقة بوحدة، وهذه هي أزمة الفكر ..

أما أزمة الخطاب, فمثلما اختنق مفهوم الوحدة في أروقة البعض من الذين يردّدون كلمة الوحدة، كذلك احتبس الخطاب في بعض هؤلاء.

الخطاب يكون خطاب وحدة عندما يستهدف تحقيق واقع صحيح، وينسجم بمفرداته مع مفردات كل واقع يريد أن يصنعه، عندئذ يكون الخطاب خطاباً وحدوياً.

هناك أزمة، وهناك ازدواج في الخطاب؛ لأنك تجد من الناحية التنظيرية الكثير ممن يتحدثون عن الخطاب الوحدوي، ولكن عندما تنظر إلى الواقع تجد ممارسة خاطئة ومقلوبة.

نحن في العراق تخطينا مسألة الخطاب، ولسنا بحاجة إلى خطاب يعلّمنا كيف نوحّد واقعنا, هناك واقع وحدوي في العراق نستلّ منه مفردات الخطاب، خذوا مثلاً بسيطاً:

رأيتم ماذا أرادوا بحادثة (جسر الأئمة)؟ أرادوا أن يمزقوا واقعنا بواقع آخر، ويستبدلوا الوحدة الحقيقية بحالة من الفرقة.

إن الخطاب الذي صدح به الجميع كان خطاباً وحدوياً، وكان مستلهما من الواقع، ولذلك وجدنا أن الكلمات التي أطلقها الجميع، والممارسات التي جسّدها مشهد (شهداء جسر الأئمة) كان مشهداً وحدوياً رائعاً، ذابت فيه كل الفروق المذهبية، والقومية، والدينية، والسياسية، والمناطقية، لذا نحن لسنا في أزمة خطاب...

في الوقت الذي أثمّن الجهود التي بذلها معالي الأخ الدكتور (عمرو موسى) في جمع هذا الشمل المبارك في هذه القاعة، وإذ أقدّر كم بذل من الجهود، ولعلي عشت بعض فصول محاولاته وأنا في بغداد، لكني أقول له:

على الرغم مما بذلته؛ لتجمع الفرقاء السياسيين العراقيين تحت سقف واحد، وفي قاعة واحدة إلا أن هناك حكومة وطنية مخلصة، وُلِدت من رحم هذا الشعب، وهي مُصِرة على أن تجعل من أرض العراق، وسماء العراق، وثروات العراق واقعاً وحدوياً حيث تستبدل فيه الطلقة بالكلمة الطيبة، والبندقية بالقلم.

ربما يكون من الصعب أن تجمع الفرقاء السياسيين لكن الأصعب أن تتعامل مع الواقع خصوصاً حين تبلغ الصعوبة ذروتها عندما يحمل الآخر سلاحاً، ويستبيح الكرامة والدم.

في العراق إصرار على حفظ وحدة الشعب، وإصرار على الحفاظ على الموروث الرائع من التعايش المذهبي، والديني، والقومي، لقد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا واقعاً ونحن مُصِرون على الحفاظ عليه.

في العراق، يجعل (26,1) في المائة من العراقيين يتلونون في زيجاتهم بين مختلف المذاهب.

لقد ورثنا هذا الواقع، ونحن مُصِرون على الاستمرار به.

تعرضت الوحدة الوطنية في أكثر من مرة، وتحت شعارات كبيرة باسم (الوحدة) لمحاولات تمزيق الصف! وتحت شعارات كبيرة من حيث اللفظ، باسم الحفاظ على

(الأمن واختزال زمن وجود القوات متعددة الجنسيات) وإذا بنا من جراء هذه الشعارات نجد أطفالنا، ونساءنا، وكبارنا، وصغارنا يموتون على رؤوس الأشهاد، وبطريقة بشعة يقشعر لها الجلد، ويندى لها الجبين خجلاً و حياءً!!.
ودّعتُ بغداد يوم أمس بكارثة جديدة!! حيث سجل عمر آخر الأطفال المستشهدين رقماً بلغ أربعة أيام فقط!!.
هذا هو مفهوم المقاومة؟؟ نحن أبناء المقاومة.. من الذي يزايدنا على المقاومة؟ ومن الذي يملك تأريخاً أطول من تأريخ العراقيين في المقاومة، ومواجهة الدكتاتورية.. من؟
نحن أبناء (الصدر)، الصدر... الذي صمّم على الشهادة، وقال:
أقدم نفسي شهيداً، وهذا آخر خطابي معكم.
نحن أبناء (عبد العزيز البدري) الذي قطّعه صدام أوصالاً!!
نحن أبناء هؤلاء، نحن (نمشي) بطريق، ونعي جيداً الخطورة التي تحيط بنا.
هناك ثقافة في البعث الذي ورّث العراق هذه الممارسات السيئة, وهناك الثقافة التي جاءت باسم العرب في العراق، فقطعت أوصالنا، وهدرت ثروتنا، واعتدت على كراماتنا، لذلك وضعنا خطاً أحمر:
لا مجال للبعث في العراق.
هذا ليس قراراً شخصياً أطلقه من منصة الجامعة العربية إنما هو واقع عراقي.
ذهب الوقت الذي يختزل فيه العراق بشخص واحد، العراق اليوم معمل أبطال، والذي يسقط شهيداً على نظرية أنك تغتال صاحب النظرية، أو رجل التصدي، فسيخرج بعد ذلك ألف.. ألف قائد، وألف.. ألف منظّر في العراق؛ لذا فإننا يجب أن نبني العراق بناءً حضارياً جديداً.
في كل بلدان العالم عندما تتعرض المقاومة للدكتاتورية تثور، وعندكم هذه الثورات الخمس الكبرى في التأريخ: البريطانية، والأميركية، والألمانية، والروسية، والفرنسية هذه هي الثورات المعروفة.
إن كل بلد يتعرض إلى الاحتلال يقاوم، وكل بلدان العالم تقاوم، ومن يُردْ أن ينُهي فصل وجود القوات متعددة الجنسيات (في العراق) لا ينبغي أن يكون جزءاً من مركّب الإرهاب، لكن ليكن جزءاً من مركّب الأمن؛ لأن شعبنا يريد منا أن نوفّر له الأمن.
إن الأخوّة بين العرب والأكراد وبقية القوميات واقع في العراق، والأخوّة بين السنّة والشيعة واقع كذلك، ولا نحتاج لأحد لأن يذكرنا بذلك لكننا نشكركم كثيراً على هذا التذكير.
إن الوحدة في العراق تنبض في عروق العراقيين، ومن يُرد معرفة ذلك فليتابع التعامل اليومي بين أبناء السنة والشيعة, بعض الذين يمارسون الإرهاب باسم الطائفة، يردّ عليهم شعبنا: إن هذا لا يمثل الطائفة السنية أو الطائفة الشيعية، ونحن نقولها حقاً:
لا يوجد سُني يقتل شيعياً، ولا يوجد شيعي يقتل سنياً على الإطلاق؛ لأنهم يتعايشون جميعاً.

لذلك هذا هو الانفصام في الخطاب، وهذا هو الانفصام في مجالات التطبيق، نحن نقول شيئاً، ونمارس عملاً مناقضاً لما نقول، وهذا في تقديري لا يدفع بالوحدة لأن تتحقق، لكن الذي يدفع بالوحدة نحو التحقق هو أن نلتزم بمستلزمات الوحدة.
الشعب العراقي خرج في الـ 30 من كانون الثاني؛ لينتخب تحت وابل الرصاص، وعلى رؤوس الأشهاد حيث الكل شهد ذلك المشهد في الـ30 من كانون الثاني 2005، حيث انتخب الشعب العراقي جمعية وطنية لمّت، وجمعت بتكويناتها مجمل تكوينات الشعب العراقي باستثناء الحجم الذي يناسب إخواننا وأعزاءنا أبناء السُنة العرب، لظروف نعرفها، وتعرفونها.
هذه الجمعية الوطنية تقدمت بشكل رائع، لتسجل سبقاً في هذه المنطقة، حيث يتواجد فيها ثمانون سيدة يشكلن 30% من مجموع أعضاء الجمعية الوطنية حيث السيدات يشكلن الآن مع إخوانهن في الجمعية الوطنية نسبة الثلث، وكذلك الحال في الحكومة، حيث ثلث أفراد هذه الحكومة من السيدات اللائي يساهمن في الحكومة.
في هذه الحكومة حيث العربي، والكردي، والتركماني، والمسيحي، والسُني، والشيعي، كلنا نعمل سوية وتحت سقف واحد، حيث لم تنقطع اجتماعات مجلس الوزراء ولو لأسبوع واحد، وبعض الأحيان كنا نضطر إلى عقد اجتماعين في الأسبوع الواحد والجميع يعملون كخلية نحل.
يتذكر الأستاذ (عمرو موسى) أني جئت هنا إلى القاهرة ماشياً على قدميّ، لقد جئت إلى مصر؛ لأنها الأكبر عربياً، ولأنها حاضنة القدر العربي (جامعة الدول العربية)، جئت هنا بكل تواضع؛ حتى أبدأ من حيث أصلي في مصر.
أنا أقدّر ماذا تعني مصر: إن مصر هي الجناح الثاني للحضارة الإنسانية بعد العراق، فالطائر الحضاري حلّق في التأريخ في ألفه الرابع قبل الميلاد من الأهوار في العمارة والناصرية، ثم من مصر، من الأهرام، فبدأ عدّاد الحضارة في المسيرة الإنسانية يؤرّخ من مصر.
ربما شكك البعض بأصل مِصر وعروبتها عندما نظر البعض من أرض النيل: أن مصر آرية الأصل، ولم يشكك أحد بعروبة العراق.. نحن أبناء العراق، ونحن إخوانكم هنا.
لقد جئت إلى هنا، ووددت أن تتحرك العملية، ويكون إخواننا بكامل أفراد العائلة العربية معنا في الشارع العراقي، وقلت لهم: أنصفونا فيما هو لنا، وأنصفونا فيما هو علينا.. أنصفونا.
لقد تمنيت أن تتم الحركة (الدعم العربي للعراق) منذ وقت مبكر، وللحق أقول: كان الرجل (عمرو موسى) إيجابياً، فقد ساعدنا بأن نحتل موقع وزارة الخارجية في (9/9/2003) حيث عقد أول مؤتمر لوزراء الخارجية العرب بعد سقوط الطاغية المقبور صدام, وجلس وزير خارجيتنا على كرسي وزارة الخارجية العراقية في هذا المؤتمر.

لكن - وللأسف الشديد- شهدت مسيرة الثلاثين شهراً أو ما يقارب الثلاثين شهراً الماضية غياباً عربياً (منذ سقوط نظام صدام في 2003 حتى وقت انعقاد مؤتمر الوفاق العراقي في 19/11/2005).
ما زلنا نتمنى لهذا المؤتمر، ولهذه المبادرة الموسومة: (الملتقى الوطني العراقي) أو (اللجنة التحضيرية للتفاهم الوطني العراقي) والتي أمامها مسؤوليات كثيرة نتمنى أن تتمكن من الإسهام بشكل فعّال في دفع الوطن إلى الأمام.
أمام هذه المبادرة، نحن نعيش في العراق، وقلوبنا مفتوحة لكل إخواننا وأعزائنا حيث لن نفرق بين أحد، ونصرّ على هذا الطريق، ونتوسم أن تضيف هذه المبادرة رافداً جديداً لتقوية الوحدة الوطنية العراقية.
لكني أقول: أن مُلخّص ما نتطلع إليه من هذه المبادرة الموسومة هو أن تخرج بآلية محددة، ولا تتجاهل الخطوط الحمراء التي وضعناها، والمستوحاة من المصلحة الوطنية العراقية، بل أكاد أجزم أنها من البيت العربي، ومن الجامعة العربية.
وفي الوقت نفسه نتطلع لأن تسعى مبادرة الجامعة العربية إلى التفاعل مع الخطوات اللاحقة في العملية الانتخابية القادمة لشجب الإرهاب، وتعزيز الوحدة الوطنية.
وفي الوقت ذاته.. أتمنى أن تنعطف جامعة الدول العربية في التعامل معنا؛ لاحترام سيادة العراق، وأن يتحرك العراق في داخل الجامعة العربية باعتباره دولة مؤسسة مع مجمل حركة هذه الجامعة بكل دولها.
كما أتمنى أن يقدّر الإخوة في جامعة الدول العربية الظروف التي يمرّ بها العراق، فيتعاونوا معنا أمنياً، وإعلامياً، واقتصادياً.
إن العراق بلد الخير، وهو ليس بحاجة إلى أحد، ولكنه الآن يمرّ بظروف استثنائية، وسيمضي العراق حتى يشقّ طريقه، ويأخذ موقعه المتقدم، لأن الله (تبارك وتعالى) حباه بمختلف أنواع النعم، ومن هذه النعم هو الخزين السياسي المتنوع لكل الكيانات والأطياف العراقية.
إن العملية الديمقراطية ستمضي إلى مداها النهائي في تحقيق حالة ديمقراطية لا يختنق فيها أي عراقي، حيث يمتدّ فيها العراقيون كافة؛ لأخذ حقوقهم بكامل حجمهم، وبما يتناسب مع حجم العراق كله.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...